بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿٢﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

تباركَ: تبارك الله تعالى: تقدَّسَ وتنـــزهَ (الأقرب).. أي أن الله تعالى جامع لكل الصفات الحسنة، ومنـــزه عن جميع العيوب والنقائص.

الفُرقان: كلُّ ما فُرِقَ به بين الحق والباطل. (الأقرب)

وقال الإمام الراغب: "الفرقان: كلامُ الله تعالى لِفَرْقِه بين الحق والباطل في الاعتقاد والصدق والكذب. (المفردات)

العالَمين: جمعُ العالَم وهو: الخَلقُ كله؛ كلُّ صنفٍ من أصناف الخَلق؛ وقيل: يختص بمن يعقِل؛ وقال بعضهم: هو اسم لما يُعلَم به شيءٌ، ثم سُمّي به ما يُعلَم به الخالقُ (الأقرب).

ولمعرفة المزيد راجِعْ شرح لفظ ﴿العالمين﴾ في المجلد الأول من هذا التفسير.

نذيرًا: النذير: الإنذارُ؛ المنذِرُ؛ الرسولُ. (الأقرب)

قدَّر: قدَّره على شيء: جعَله قادرًا. وقدَّر الشيءَ بالشيء: قاسَه به وجعَله على مقداره. وقدَّر فلانٌ: تروَّى وفكّر في تسوية أمره. (الأقرب)

التفسير: لقد نبّهنا الله تعالى هنا أن الإله الذي نـــزّل القرآن الكريم جامعٌ للمحاسن كلها ومنـــزّهٌ عن العيوب كلها، وأن هذا الكتاب الذي قد أنـــزله

يفرّق بين الحق والباطل، وأنه للعباد كلهم أيًّا كان مستوى عقلهم أو ميولهم. فقد ورد في رواية عن عبد الله ابن الزبير أن النبي ﷺ قرأ قول الله تعالى ﴿نَـــزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ بقراءة أخرى هي: "نـــزّل الفرقان على عباده" (البحر المحيط). وهذه القراءة تشير الى نفس المعنى أي أنه تعالى قد أنـــزل الكتاب الذي يميز بين الحق والباطل على عباده الذين لهم طبائع مختلفة لكي يكون هذا الكتاب إنذارًا للخَلق كلهم، وبتعبير آخر إنه كتاب يمكن أن يتعظ وينتفع به كل إنسان أيًّا كان مزاجه وطبعه.

إن هذه الآية التي استُهلّتْ بها سورة الفرقان آيةٌ وجيزة في ظاهرها، ولكن التدبر يكشف لنا أنها رغم إيجازها تقدم للمسلمين خطة عمل واسعة وكاملة.

لا شك أنه يوجد في الدنيا ملايين يسمّون أنفسهم مسلمين، ولكن مجرد تسمية شيء باسم لا يولّد فيه الحقيقة الكامنة في ذلك الاسم. يقول الشاعر باللغة الفارسية: "بر عكس نهند نامِ زنگی كافور".. أي قد سموا الحبشي كافورًا. وهذا يقال حين يكون الأمر خلاف الحقيقة تمامًا.. ذلك لأن الحبشي يكون شديد السواد كما يكون الكافور شديد البياض.

وقد قال شاعر آخر من بلادنا باللغة الأردية مبينًا أن الدنيا مكان العجائب إذ تجد كل شيء فيها مقلوبًا:

نارنگی کو نارنگی کہیں، پنے دودھ کو کھویا

چلتی ہوئی کو گاڑی کہیں، دیکھ کبیرا رویا

أي أن البرتقال ثمر جميل اللون، ولكنهم قد يسمونه "نارنگی" أي عديم اللون؛ ويطلقون على الحلوى المصنوعة من الحليب المركز اسم "كهويا".. أي "المفقود"، مع أن المفقود هو الشيء الضائع؛ كذلك يسمّون السيارة "گاڑی".. مع أن معناه الحرفي الشيء الثابت في مكانه لا يتحرك. لقد أبكاني – يقول الشاعر واسمه "كبيرا"– رؤية كل هذه الأمور المقلوبة في الدنيا رأسًا على عقب. فما أشدَّ هذه

الدنيا غباءً، حيث تسمي كل شيء على عكس حقيقته. فهل أصابها مرض الحَوَل حيث ترى كل شيء مقلوبًا.

فبوسع المرء أن يسمّي نفسه بأي اسم شاء، إسلاميّ أو هندوسي أو بوذي أو زرادشتي، ولكن الاسم وحده لا يخلق في المرء جوهر دينه. فهناك ملايين من الناس ينتمون إلى الهندوسية أو الإسلام أو البوذية أو الزرادشتية، ولكنهم يبدون لك مسيحيين من هيئتهم ولباسهم وأسلوب حياتهم وأفكارهم، وإذا تحققت وعرفت أسماءهم وجدت أنهم قد وُلدوا في بيوت هندوسية أو مسلمة أو بوذية أو زرادشتية.

فالاسم وحده ليس بشيء، بل إن ما يزيد قيمة الشيء هو صفاته ومحاسنه، وإلا فلا فرق – من حيث الاسم – بين موز طيني وموز حقيقي، وبين تفاح طيني وتفاح حقيقي، وبين مانجو طيني ومانجو حقيقي. إن تسمية هذه الأشكال الطينية بأسماء هذه الفواكه لا تولّد فيها خواصّها، ومن المستحيل أن ينتفع أحد منها كما ينتفع من الثمار الحقيقية.

بالاختصار، لن ينفع الناسَ من الأشياء إلا ما يتصف بالصفات التي تتفق مع اسمه، فإذا كان يسمى ترياقًا فيجب أن توجد فيه خواص الترياق، وإذا كان يسمى شفاءً فيجب أن يتوافر فيه الشفاء. وهذه هي الحقيقة التي قد بينها الله تعالى في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾. فإن أول ما أعلنه الله تعالى هنا للناس هو أنه تعالى بريء من كل نقص ومنزه عن كل عيب. ثم بين الله تعالى أن هذا ليس ادعاء فارغًا فحسب، بل هو إعلان حق تمامًا، والدليل على ذلك هو أنه تعالى ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾.. أي أنه أنزل الوحي الذي كل كلمة فيه تميّز بين الحق والباطل، وتبين للناس ما هو مفيد حتى يأخذوه، وما هو ضار حتى يتركوه.

فإنك تجد التعاليم المسيحية – مثلاً – جميلة جدًّا في ظاهرها، كقول المسيح عليه السلام: "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ له الآخرَ أيضا" (متى ٥: ٣٩). وعندما يقرأ أحد القسيسين هذا التعليم الإنجيلي واقفًا أمام الناس في أماكن مختلفة تجد العديد من المسلمين الضعفاء يقولون: سبحان الله، ما أروعَه من تعليم! ولكن حين يأتي الوقت للعمل بهذا التعليم يتبين لك أنه غير صالح للعمل. بل إنك تجد أن

المسيح عليه السلام نفسه لم يستطع العمل بهذا التعليم في حياته. فها هو نفس المسيح الذي كان يعلّم الآخرين أن "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ له الآخرَ أيضا" يقول في موضع آخر: "ما جئتُ لأُلقي سلامًا بل سيفًا" (متى ١٠: ٣٤)، بل إنه أمر حوارييه وقال: "ومَن ليس له فليَبِعْ ثوبَه ويشترِ سيفًا" (لوقا ٢٢: ٣٦). إذًا، فقد ثبت أن العالم المسيحي لم يعمل بهذا التعليم أبدًا.

ولكن القرآن الكريم يعلن أنه يميز بين الحق والباطل بحيث يتضح للمرء كيف يتصرف، وينكشف عليه طريق الخير من طريق الشر. وقد بين الله تعالى في سورة البقرة أيضًا أن من أهم مزايا القرآن الكريم أنه فرقان حيث قال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(البقرة:١٨٦).. أي أن شهر رمضان هو ذلك الشهر المقدس المبارك الذي قد نزل القرآن الكريم بشأنه.. الذي هو سبب لهداية الناس كافة، ويحتوي على دلائل ساطعة تساعد على الهدى، كما أنه فرقان أيضًا.. أي توجد فيه آيات تميز بين الحق والباطل.

لا جرم أن كل نبي بُعث من عند الله تعالى قد أُعطي الفرقان أيضًا.. أي آيات معجزات تفرق بين الحق والباطل؛ ولكن نبينا محمدًا ﷺ ممتاز عن باقي الأنبياء، وذلك أن غيره من الأنبياء قد أُعطوا الكتاب ومعه الفرقان، أما رسول الله ﷺ فإن الكتاب الذي نزل عليه كان في حد ذاته فرقانًا. فقد كانت التوراة تحتاج، لبيان صدقها، إلى معجزات أخرى لموسى عليه السلام، كما أن الوحي الذي نزل على المسيح عليه السلام كان بحاجة إلى التصديق والدعم من معجزاته الأخرى؛ ولكن الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ هو بحد ذاته فرقان.. أعني أنه كتاب كاملٌ وحيٌّ ، ولو أن الناس نسوا معجزاته ﷺ الأخرى فإن في القرآن الكريم من البراهين التي تثبت صدقه، وتميز الحق من الباطل.

ثم يقول الله تعالى إنه ذو بركات لكونه قد أنزل كلامه على عبده.. أي من خضَع لله تعالى وانقاد له كلية، ولا يبرح في طاعة أوامره ليل نهار. لا شك أن مئات الناس يدّعون إصلاح القوم، ولكن الواقع أنهم لا يعملون بما يقولون للآخرين. إنهم يُدْعون زعماء وهداة، ولكن أفعالهم تتنافى مع ما يدعون إليه،

فيسببون العثار للآخرين. فالناس يُعجَبون بالتعليم الذي يدعون إليه، ولكنهم حين يرون إلى أعمالهم من نفاق وخيانة يكرهونهم؛ أو يقولون في أنفسهم: ما الحرج لو لجأنا إلى النفاق والخيانة مثلهم. أما النبي فيقدّم للناس نموذجًا عمليًا لما يدعوهم إليه. لا شك أن الحقائق تكون موجودة في الدنيا قبل بعثة النبي، ولكن الناس لقلّة إيمانهم يرمونها وراء ظهورهم. ولا جرم أيضًا أن النبي يأمر الناس بأن يصدقوا القول، كما يقول لهم زعماؤهم الدنيويون. وينهاهم النبي عن السرقة، وكذلك يمنعهم الزعماء الماديون أيضًا من السرقة. وينصحهم النبي: أن لا يظلموا، وكذلك يقول لهم هؤلاء الزعماء أن لا يظلموا؛ ومع ذلك تظل الدنيا بحاجة إلى الأنبياء؛ ذلك لأن الأنبياء يؤكدون بأسوتهم أن هذه الحقائق والتعاليم صالحة للعمل بها. لا شك أن زعماء الدنيا أيضًا ينهون الناس عن الظلم، ولكنهم عندما يقومون بتعريف الظلم يسوغون لأنفسهم كل أنواع الظلم. ولا غرو أن الناس يقولون بأفواههم: لا تكذبوا، ولكنهم لا يتورعون بأنفسهم عن قول الكذب عند الحاجة. لا شك أنهم ينهون الآخرين عن غصب أموال الناس، ولكنهم عند الحاجة يسلبون الناس أموالهم ويأكلونها. إذًا، تصبح تعريفات هذه المعاصي عند زعماء الدنيا محدودة جدًا. أما النبي فلا يأتي الناس بالتعريف الكامل لهذه الأعمال فحسب، بل يُريهم أيضًا من خلال أسوته كيف يتمّ العمل بهذه التعاليم. لا شك أن الناس قبل مجيء الأنبياء أيضًا يقولون إن على المرء أن يصدق القول، ومع ذلك هم يكذبون، وإذا قيل لهم: لِمَ تكذبون؟ قالوا: لا تسير الأمور على ما يرام بقول الحق. ورغم أن الناس يقرّون بأن الغشّ والخداع أمر سيء، ومع ذلك يغشّون ويخدعون، وإذا قيل لهم لم تغشّون، يقولون إن العيش محال في الدنيا بدون الغشّ؛ لأن كل شخص في الدنيا ذئب، ولا بدّ له من أكل لحم الخروف ليعيش؟ وهذا التصرف منهم قد جعل أجيالهم تظنّ أن الأعمال الحسنة إنما هي للكلام فقط، إذ العمل بها مستحيل. ولكن النبي يكون أسوةً للدنيا، ويريهم كيف يمكن العمل بهذه الحقائق التي يتصورونها غير قابلة للعمل. فالذين يكذبون ظانين أن قول الصدق أمر مستحيل، والذين يظلمون الناس ظنًا منهم أن العمل بالرحمة محال، فإنهم حين يرون أسوة الأنبياء يدركون

خطأهم، وعندما يرون أن النبي أيضًا بشر مثلنا ومع ذلك يصدق في كلامه، ولا يظلم أحدًا، ولا يبخس أحدًا حقه، ويتجنب كل نوع من المعاصي، فإن هممهم تسمو وتعلو، فيستعدون للقيام بالأعمال الصالحة.

إذًا، فهناك غرضان من بعثة الأنبياء: أولهما أنهم يكمّلون التعليم الروحاني من الناحية العلْمية، وثانيهما أنهم يقومون بالشرح الصحيح للعلم الروحاني من خلال عملهم وأسوتهم. لا شك أن الناس قبل بعثة النبي أيضًا يدركون ضرورة قول الصدق، ولكنهم يعرّفون الصدق تعريفًا ناقصًا جدًّا. ولا جرم أنهم يقولون أن على المرء أن لا يظلم أحدًا، ولكنهم يعرّفون الظلم تعريفًا خاطئًا. كما أن عَملهم يكون أشد نقصًا من تعريفهم أيضًا، حيث لا يعملون بما يسمّونه صدقًا، ولا يتجنبون ما يسمّونه ظلمًا. ولكن حين يأتي النبي يقدّم أمام الناس تعريفًا جامعًا كاملاً لكل حسنة وكل سيئة، ثم يُريهم بعمله كيف يمكن العمل بهذه الأحكام، وهكذا بتقديم أسوته يرفع هممَ الناس.

فالله تعالى يلفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: مباركٌ الله الذي أنـــزل وحيه الذي يبين الأمور بكل دقة، ويميز بين الحق والباطل. ومباركٌ الله الذي لم يفوّض هذا الوحي المبارك إلى شخص سيء العمل، ينفّر الناس عن الدين بدلاً من أن يرغّبهم فيه، بل قد أنـــزله على شخص قد أورد الموت على نفسه وعلى حياته المادية، وتخلَّقَ بأخلاق الله كلية، وجذب الناس إلى الخير بأسوته الحسنة.

ثم لو وضعنا في الاعتبار الرواية التي تقول إن النبي ﷺ قد سمح لعبد الله بن الزبير أن يقرأ قول الله تعالى ﴿نَـــزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه﴾ بقراءة أخرى وهي "نَـــزَّلَ الفرقان على عباده".. فستعني هذه الآية: تبارك الذي نـــزل الفرقان لعباده أجمعين على اختلاف طبائعهم وميولهم ورغباتهم. والحق أن هذا الأمر يشكّل برهانًا ساطعًا على صدق الإسلام وعلى كونه دينًا عالميًا. فإن التدبر في تعاليم الإسلام يكشف لنا أنه قد راعى في أحكامه الطبائع الإنسانية بجميع أنواعها لكي لا يشق العمل بها على النفس البشرية. فقد أمر بالاعتدال في الأكل والشرب، بل في كل شيء. فقال إذا صليتم فصلوا بالاعتدال، وإذا صمتم فصوموا بالاعتدال، وإذا أنفقتم فأنفقوا

بالاعتدال. ورد في الحديث أن النبي ﷺ دخل بيته مرة، فوجد في السقف حبلاً كانت أم المؤمنين زينب – رضي الله عنها – قد علقته، فسأل: ما هذا الحبل؟ فقيل له إن زينب تمسك بالحبل إذا تعبت في الصلاة. فقال النبي ﷺ: انـــزلوا هذا الحبل، هذه ليست بصلاة، إنما على المرء أن يصلي وهو نشيط، فإذا تعب في الصلاة استراح. (البخاري: كتاب التهجد، باب ما يكره في التشديد في العبادة)

كذلك ورد في الحديث أن عبد الله بن عمرو قرر مرة أن يصوم كل يوم، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك وقال: هذا غير مناسب. إذا كنت تحب الصوم كثيرًا فصُمْ يومًا وأَفْطِرْ يومًا. (البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الدهر)

وكما قلت إننا مأمورون بالاعتدال في الأحكام الأخرى أيضًا. فمثلا إذا أمرَنا الإسلام بالإنفاق فإنه قد نصحنا أيضًا ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(الإسراء:٣٠).. أي لا تبخل عند الإنفاق، ولا تبذر أيضًا بحيث تضيع كل ما تملك، فيلومك الناس، كما تُحرم من كسب المال في المستقبل.

فالإسلام لم يأمر بما يشق على الفطرة الإنسانية، بل إن أوامره صالحة للعمل سواء للمريض والضعيف، والصحيح والقوي، والنساء والرجال، والشيوخ والصغار، والأثرياء والفقراء جميعًا. لم تبق نفسٌ محرومةً من فيوضه ولم تبق أمة ولا بلد خارجَ نطاق هديه. بل كما أن الشمس التي خلقها الله تعالى تشرق على قصور ملك وعلى كوخ فقير، كذلك فإن الهدي الإسلامي الروحاني ينفع الفقير والغني على حد سواء، ويمتّع الجميعَ بقرب الله تعالى، ويحمل رسالةَ أمن وسلام ورقي وراحة لكافة الناس؛ الصغير منهم والكبير، والغني والفقير، والذكر والأنثى، والشرقي والغربي، والضعيف والقوي، والحاكم والرعية، والسيد والخادم، والزوج والزوجة، والآباء والأبناء، والبائع والمشتري، والجار والمسافر وما إلى ذلك. إن الإسلام لا يحرم أي فئة من الجنس البشري من توجيهه ورسالته، بل هو هدى للأولين والآخرين. وكما أن الله عالم الغيب يرى الذرات المخفية تحت الصخور والنجوم المتلألئة في كبد السماء، كذلك فإن تعليم الإسلام لا يستثني أحدًا، بل

يسد حاجات الجميع حتى أشد الناس فقرًا أو ضعفًا في العالم، كما يهتم بتلبية حاجات أغنى أو أقوى الناس في الدنيا. إنه ليس تقليدًا للأديان السابقة، بل إنه آخر حلقة من سلسلة الديانات وشمس النظام الروحاني. لا شك أن جميع الأديان في العالم تشترك في اسم الدين، ولكن اشتراكها مع الإسلام في الاسم يماثل اشتراك الفحم والألماس في اسم الكاربون، وشتان بين الألماس والحجر. أو يماثل هذا الاشتراك في الاسم كإطلاقنا اسم الحجر على أي حجر صلب عادي وأيضًا على الرخام، ولكن شتان بين الحجر الصلب والرخام.

ثم يقول الله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. لم يَرِد هنا فاعلُ فِعل ﴿لِيَكُونَ﴾ ظاهرًا، لذا فيمكن إرجاع ضمير الغائب في ﴿لِيَكُونَ﴾ إلى كل مرجع ممكن. ويمكن إرجاع الضمير هنا إلى ثلاثة مراجع: الله والقرآن الكريم والرسول ﷺ حيث ذُكر الله تعالى قبل ذلك في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾، كما ذُكر القرآن الكريم أيضًا من قبل حيث جاء ﴿نَـــزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وذُكر الرسول ﷺ أيضًا من قبل حيث قيل ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾. وعليه فالمعنى أنه قد نـــزل هذا الفرقان ليكون الله تعالى نذيرًا للعالمين، أو ليكون القرآن الكريم نذيرًا للدنيا كلها، أو ليكون الرسول ﷺ نذيرًا للعالم كله. وبما أن أيًّا من هذه المعاني ليس متعذرًا هنا، فيمكن الأخذ بها كلها.

واعلم أن من مزايا القرآن الكريم أنه يستخدم الضمائر أحيانًا بأسلوب خاص لأداء معاني واسعة بكلمات وجيزة. فمثلاً لو قال الله تعالى هنا "ليكون الله للعالمين نذيرًا" لم يتم التعبير عن ثلثي المعاني، وبالمثل لو قال "ليكون الفرقان للعالمين نذيرًا" أو قال "ليكون الرسول للعالمين نذيرًا" لضاعت ثلثا المفاهيم. أما لو قال الله تعالى "ليكون الله والفرقان ورسوله للعالمين نذيرًا" لطال الكلام، ولو اتبع القرآن الكريم هذا الأسلوب في كل مكان لزاد حجمه أضعافًا كثيرة. ومن أجل ذلك استعمل الله تعالى في القرآن الكريم الضمائر والمصادر بأسلوب معين، فبيّن المعاني الواسعة، كما حافظ على سمة الإيجاز أيضًا.

وأفصّل الآن هذه المعاني بالنظر إلى هذه المراجع الثلاثة للضمير هنا. إن المعنى الأول لقوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ هو أن الله تعالى لما كان إلهًا للعالم كله

فكان لزامًا أن تشمل مشيئته العالم كله فيهيئ الهدى والرشد للناس أجمعين. قبل النبي ﷺ كان كل نبي يُبعث إلى قطره الخاص. ولما كان تعليم كل نبي موجهًا إلى قومه، فلا شك أن قوم كل نبي حظوا بقرب الله تعالى بالعمل بتعليم نبيهم، ولكنهم ظنوا بمرور الأيام أن الله تعالى إلههم فقط، وليس إلهًا للأمم الأخرى. بيد أن القرآن الكريم قد سعى إلى تبرئة ساحة التوراة – مثلا – من هذا التهمة، فعند الحديث عن حادث موسى وفرعون أخبر أن الله تعالى أمر موسى وهارون وقال ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فقال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي تدّعون أنه بعثكما لإصلاحنا؟ قال لهم موسى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(الشعراء:١٧و٢٤و٢٥). فالله تعالى يخبرنا هنا أن موسى عليه السلام إنما وصف الله تعالى بأنه رَبُّ الْعَالَمِينَ، وهذا يدل على أن موسى إنما علّم الناس أن الله تعالى ليس رب بني إسرائيل وحدهم، بل هو رب العالمين كلهم. ولكن المؤسف أنه، برغم أن القرآن الكريم قد أكد هذا الأمر إلا أن اليهود والنصارى لم يعتبروا الله تعالى رب العالمين، بل جعلوه ربًا لأمم معينة فقط. فتجد أن كلمة "رب بني إسرائيل" قد وردت في التوراة مرارًا وتكرارًا، مما يدل على أن اليهود ظنوا أن الإله الذي تقدّمه التوراة إنما هو إله بني إسرائيل، دون الأمم الأخرى. فقد ورد:

"مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيلَ الذي أرسلكِ هذا اليومَ لاستقبالي." (صموئيل الأول٢٥: ٣٢)

وأيضًا ورد: "مباركٌ الربُّ إله إسرائيلَ الذي أعطاني اليوم من يجلس على كرسيّي وعيناي تبصران." (الملوك الأول ١: ٤٨)

كما ورد أيضًا: "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيلَ من الأزل وإلى الأبد" (أخبار الأيام الأول ١٦: ٣٦)

ثم ورد: "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيلَ الذي كلّم بفمه داودَ أبي." (أخبار الأيام الثاني ٦: ٤)

وجاء: "مباركٌ الربُّ اللهُ إلهُ إسرائيلَ." (المزامير٧٢: ١٨)

فالتوراة لا تقدّم إلا إله بني إسرائيل. ولكن قراءة القرآن الكريم تكشف لك أن الله تعالى يصف نفسه في كل مكان فيه بأنه رب العالمين، ورب الإنس والجن كلهم، ورب الخلق كلهم، سواء المسلم أو الهندوسي أو المسيحي أو اليهودي أو غيرهم. ولو قرأ أحد اليهود هذا التعليم القرآني سيشعر في قلبه أن منـــزل هذا الكلام هو إلهه كما هو إله للمسلمين. وإذا قرأ أحد المسيحيين هذا الكتاب سيشعر في قلبه أن منـــزل القرآن الكريم هو إلهه تمامًا كما هو إله للمسلمين. وإذا قرأ أحد الهندوس هذا الكلام سيشعر في قلبه أن منـــزل هذه الوحي إلهه كما هو إله للمسلمين. ولكنك لن تجد هذا الأمر الذي ركز عليه القرآن الكريم مذكورًا في أي كتاب آخر.

كذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾ (الإسراء:٢١).. أي أن من الخطأ الظنّ أن الله تعالى يمدّ المسلمين فقط. كلا، بل إنه تعالى يُعين هؤلاء القوم وأولئك القوم أيضًا.. بمعنى أنه تعالى يعين الأمم والشعوب كلها، فرحمته ليست مخصوصة بقوم دون قوم، بل كل من يعمل بالقوانين التي سنّها تعالى سيحرز الرقي والتقدم، سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا. وهذا ما تراه على صعيد الواقع أيضًا، حيث تجد أن فضل الله تعالى المتمثل في المنافع الدنيوية والتقدم المادي يصل إلى المسيحيين كما يصل إلى الهندوس والبوذيين والزرادشتيين واليهود والمسلمين أيضًا. بيد أن الفيوض الروحانية إنما تصيب قومًا يكونون على صلة روحانية حقيقية مع الله تعالى. أما فيما يتعلق بأمور الدنيا فكل من اجتهد نال جزاء اجتهاده، سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا، ولا يُشترط لذلك الدين أو الإيمان.

كذلك إن مطالعة كتاب الفيدا الهندوسي تكشف لك أن منـــزله إلهٌ للهندوس فقط، ولا صلة له بالشعوب الأخرى. بل الواقع أن الذين يؤمنون بكتاب الفيدا جعلوه كتابًا خاصًّا بالطبقات العليا من الهندوس، حتى كتب "مَنَو جي" الذي هو الشارح الثقة للتاريخ الهندوسي باعتراف جميع الهندوس سواء "الآريا" منهم أو "سناتن دهرم":

"لو أن الشورد سمع الفيدا فعلى الراجا (أي الملِك) أن يضع في أذنه الرصاص والشمع ويسدّها. ولو قام بترديد فقرات من الفيدا فعلى الراجا أن يقطع لسانه، أما إذا قرأ الفيدا فعلاً فعليه أن يقطع جسمه إربًا." (غوتم سمرتي: أدهياء ١٢)

أما الأحكام التي أصدرها الفيدا بخصوص الأمم الأخرى فهي غاية في الخطورة. فمثلاً سُمّي معارضو الديانة الفيدية في كتاب الهندوس كلابًا، حيث ورد ضدهم هذا الدعاء: "يا أيتها الإلهة إلهة النار، اذهبي وصَفِّدي هؤلاء الكلاب." (رِغْفَيدا)

أما كتابهم "أثرفيدا" فيعلِّم الهندوسَ أن يصفِّدوا معارضي ديانة الفيدا بالقيود ثم يسلبوا بيوتهم، حيث ورد: "يا أتباع الديانة الفيدية، افترِسوا المعارضين افتراس النمور، ثم اسلبوهم حتى طعامهم" (أثرفيدا كانڈ ٤ سوكت ٢٢ فقرة ٧)

(The Atharva Veda, Vol.1 Book 4 P.216)

كذلك وردت في الفيدا أدعية ابتهلوا بها أمام الشمس والنار والماء وإلههم "إندر" وحتى الكلأ والحشيش لهلاك الذين لا يؤمنون بالديانة الفيدية، حيث جاء فيه: "أيتها النار، احرقي معارضينا واجعليهم رمادًا".

(يجرفيدا: أدهياء ١٨ فقرة ١١-١٣) (The Yajur Veda, Chapter 13 P.192)

وورد أيضًا: "يا "إندر، افترِسْ ومَزِّقْ أعداءَنا، وشَتِّتْ شمل الذين يكرهوننا".

(سامفيدا الجزء الثاني كانڈ ٩ سوكت ٢ فقرة ٩)

و(Sama Veda Sanhita, Chapter 21 P.839)

وأيضًا جاء: "أيها المعارضون، فلتكونوا بدون رؤوس، وعميًا كالأفاعي المقطوعة الرؤوس، وليدمِّرْ الإلهُ "إندر" كبراءكم." (سامفيدا الجزء الثاني كاند ٩ سوكت ٣ فقرة ٩، والمرجع السابق ص ٨٥١)

وأيضًا ورد: "يا أيها "الدابُ" الكلأُ احرِقْ أعداءنا ودَمِّرْهم. وكما أنك تشقّ سطح الأرض عندما تخرج وتنبت، كذلك نرجوك أن تشق رؤوس أعدائنا وتصعد عاليًا وتدمّرهم تدميرًا". (أثرفيدا كانڈ ١٩ سوكت ٢٨ فقرة ٤)

و(The Atharva Veda, Vol.2 Book 19 P.285-286)

كما تنهى الديانة الهندوسية حتى عن الكلام مع أحد ممن لا يؤمن بالديانة الفيدية الهندوسية. (غوتم دهرم سوتر، أدهياء ٥)

وكذلك قيل لهم: "إذا اعترض أحد على ديانتكم فانفوه من الأرض". (هندو دهرم شاستر)

ومن المستحيل بعد قراءة هذا التعليم أن تتولد في قلب الإنسان مشاعر المحبة تجاه الديانة الفيدية الهندوسية، ولن يراها كفيلة بنجاته.

ونفس الحال بالنسبة للديانتين الكونفوشيوسية والزرادشتية، إذ لم تتوجه أي منهما بتعاليمها إلى الناس أجمعين، كما لم تَسْعَ بتبليغ دعوتها إلى الشعوب كلها، بل قالت الكونفوشيوسية إن بلاد الصين وحدها مَظْهَرٌ لملكوت الله تعالى، مثلما أعلنت الهندوسية أن الهند هي بلاد الخواص من عباد الله، بينما قالت الزرادشتية إن بلاد فارس هي وحدها مظهر لملكوت السماء. باختصار، كانت كل ديانة تعتبر الله تعالى إلهًا لشعبها الخاص دون الشعوب الأخرى، وكأنها كانت تنكر كونه تعالى ربًّا للعالمين كلها التي تتمتع بفيوض ربوبيته تعالى؛ فكان لزامًا أن يُعرض وجود البارئ تعالى على العالم بكامل حسنه الحقيقي وبأنه رب العالمين، وبأنه ليس إلهًا لشعب معين أو بلد خاص، بل هو إله العالمين كلهم. وهذا هو المعنى الذي أكده الله تعالى هنا بقوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، فبيّن أنني أنا ذلك الإله الذي هو إله للهندوس والمسيحيين والآريين الهندوس والفرس واليونان والدهريين كلِّهم أجمعين. إنني إلهُ أهل كل بلد وإلهُ أهل كل لغة. إنني إله البِيض وإله السُود، وإلهُ جميع الشعوب، وكلُّهم عبادي، وقد أنـــزلت هذا الكتاب لإنذار الجميع وإيقاظهم.

كم هو رائع هذا التعليم الذي يقدّمه القرآن الكريم! وكم هو متلائم مع الفطرة الإنسانية! إن قراءة هذا التعليم تولّد في قلب الإنسان مشاعر عميقة لحب الله تعالى بينما تولّد التعاليم السابقة في قلب المرء النفور والكراهية.

ولكن الله تعالى لو أنـــزل هذا التعليم العالمي الصالح لشعوب العالم كله، في وقت لم تكن الدنيا فيه قد اجتمعت بعد، بل كان أهل قطر يعيشون منفصلين عن أهل قطر آخر، لظل كثير من أقطار الأرض محرومة من الانتفاع منه؛ ومن أجل ذلك قد أنـــزل الله تعالى شرائع مختلفة في عصور مختلفة، وكان كل شرع منها مكتمل بحسب متطلبات عصره، ولم تزل شتى الشعوب تنال به الهدى. ولكن لما

كثرت وسائل اللقاء والاختلاط بين الناس، وانفتحت طرق الاتصال والمراسلة، أنـــزل الله تعالى للعالم كله شرعًا كفيلاً بسد حاجات العالم كله. إن جميع المؤرخين مجمعون على تسمية عصر ما قبل النبي ﷺ عصرَ ما قبل التاريخ إذ يبدأ عصر التاريخ قبيل العصر النبوي. فكأن الله تعالى حين خلق الكثير من ذرائع الاختلاط والاتصال والمراسلة فقد أعلن للناس أنه قد أوشك الزمن الذي يتحقق فيه قوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، حين يجتمع العالم كله على مركز واحد حتمًا.

مجمل القول إن الله تعالى قد أكّد بذلك أنه صاحب بركات كثيرة، والدليل على ذلك أنه قد أنـــزل الآن كتابًا سيهدي العالم كله، ويميز بين الحق والباطل. ومن الواضح أن الوحي القادر على هداية الناس في كل العصور، يشكل في حد ذاته دليلاً ساطعًا على عظمة من أنـــزله. فبما أنه كان من المقدر أن يهدي القرآن الكريم أهل كل عصر، فقد سمي كل عصر عالَمًا، حيث بين الله تعالى أن هذا الكتاب وسيلة قطعية لهداية كافة الأجيال إلى يوم القيامة. لا شك أن الصحف السابقة كانت هداية للناس في عصورها، ولكنها لم تأت بشرع عالمي، أعني أن تعاليمها لم تكن لكل الشعوب ولكل العصور، ولكن عند نـــزول القرآن الكريم كانت الدنيا قد بلغت من الارتقاء والتطور بحيث اقتضت بعثة نذير واحد للعالم كله. فأنـــزل الله صاحبُ البركة كتابًا مدعمًا بالأدلة والبراهين على عبده المطيع صاحب الأسوة السامية، لكي ينذر الناس كلهم، الأبيض والأسود والشرقي والغربي، وأن يستمر في هذا الإنذار دومًا.

هذه الدعوى نفسها قد ذكرها الله تعالى أيضًا في قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(سبأ:٢٩).. أي يا أيها النبي، إنا أرسلناك إلى العالم كله كبشير ونذير، ولكن أكثر الناس لا يفهمون هذا. ذلك لأن كل نبي من قبل كان يُبعث إلى قومه فقط، وكان تعليمه خاصًا بقومه فقط. فمثلاً إذا كان "كرشنا" و"راما" و"بوذا" يحكمون المملكة الروحانية في الهند، فكان "زرادشت" يحكم مملكة روحانية أخرى في إيران، بينما كان "كونفوشيوس" يحكم

في الصين، وكانت هناك أمة لموسى وأمة لعيسى؛ ولكن الله تعالى حين أنـــزل القرآن الكريم أعلن أنه لن يكون الآن في العالم إلا حكومة دين واحد، وستجتمع الدنيا كلها تحت راية واحدة ماديًا وروحانيًا.

وكأن الله تعالى قد نبه بقوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إلى أن الغاية الحقيقية لظهور الإسلام هي إخبار الناس جميعًا، سواء كانوا هندوسًا أو مسيحيين أو يهودًا أو زرادشتيين أو مجوسًا أو أهل أي دين آخر، أن الإله الذي هو خالقُ هذا الكون يريد أن يجمع العالم كله على كتاب واحد ورسول واحد. وهكذا فإن الله تعالى قد نصح المسلمين بذلك أن يشنّوا هجوم الدعوة والتبليغ على كافة الأديان، وفي وقت واحد، إذ لن يثبت للناس أن الإسلام ذو بركات إلا إذا أثبت المسلمون عَمليًا أن دينهم بالفعل ذو بركات وفيوض، وكشفوا محاسنه وكمالاته للعالم كله. فإن الله تعالى لا ينـــزل من السماء لإنجاز مهمات دينه، بل إن عباده هم الذين يباشرون هذه الأعمال. إذًا، فلن يثبت صدق قول الله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ما لم تصل رسالة الإسلام إلى الناس كلهم، وما لم يدخل الذين قد ابتعدوا عن الله تعالى بعدًا عظيمًا في زمرة عباده المطيعين. ألا ترى أن صحابة الرسول ﷺ لما أعلنوا للعالم أن القرآن الكريم قد نـــزل للدنيا كلها، وأن الرسول ﷺ مبعوث إلى الأمم كلها، فإنهم قد أكدوا بعملهم صدق هذا الإعلان، فنشروا الإسلام في جميع أنحاء العالم. فإذا لم تصل دعوة الإسلام الآن إلى كل قوم وإلى كل فئة وإلى أهل كل لغة وإلى أهل كل قطر فسوف تعدّ جماعتنا مسؤولة عن هذا التقصير، لأن الله تعالى إنما أقامنا لنجعل الإسلام غالبًا على العالم كله، ونوصل اسم الله تعالى إلى كل بقاع الأرض. إذًا، فقوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إذ يعلن فضل القرآن الكريم على الكتب الأخرى، فإنه يلفت نظر المسلمين إلى أهمية قيامهم بتبليغ الإسلام أيضًا، لأن كل نجاحهم منوط بهذا الأمر.

لقد ذكرتُ من قبل أن المرجع الثاني لضمير الغائب في قوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ هو القرآن الكريم. وهذا يعني أنه ليس بوسعنا أن نكون نذيرًا للعالمين، بل إن القرآن الكريم هو الذي يمكن أن يكون نذيرًا، وبتعبير آخر: إننا لا

نستطيع أن نهدي الناس، بل القرآن الكريم هو الذي سيهديهم، إذ لو كان بوسعنا أو بوسع غيرنا أن يهدي الناس لقال الله تعالى "ليكونوا للعالمين نذيرًا"، عوضًا عن أن يقول ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

إذًا، فليس هناك شيء يمكن أن ينذر الدنيا ويهديها إلا القرآن الكريم. وإذا كان الأمر هكذا فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل كل واحد منا قد قرأ القرآن الكريم حقًّا؟ وهل يسعى حق السعي لفهمه ونشره في الدنيا؟ وإذا كان الجواب بالنفي فهذا يعني أننا لسنا من جنود الإسلام، إذ لم نحمل بأيدينا السلاح الذي يمكن به فتح العالم.

إذًا، فإن الله تعالى حين وصف القرآن ﴿نَذِيرًا﴾ فقد أمرنا وقال: اقرأوا القرآن الكريم كثيرًا، واسعوا لاستيعاب معانيه ولنشر رسالته حتى يجري القرآن الكريم على ألسنتكم إذا تكلمتم، وعلى أقلامكم إذا كتبتم، وتصبح أفكاركم وأحاسيسكم ورغباتكم وميولكم كلها خاضعة للقرآن الكريم. فما لم يتكلم القرآن بلسانكم، وما لم ينبثق القرآن من أقلامكم، لن تهتدي الدنيا على أيديكم.

والمرجع الثالث للضمير المذكور في قوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ هو الرسول ﷺ، وعليه فالمعنى: تبارك الذي قد اختار لنـــزول الفرقان إنسانًا هو طاهر في ظاهره وباطنه، وهو أسوة حسنة للعالم كله.. ليكون للدنيا كلها نذيرًا. وبما أن الرسول ﷺ ما كان ليحيا للأبد حياة مادية، فقد نبه الله تعالى المسلمين بوصفه ﷺ ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أنهم لن ينجحوا في إنذار الدنيا ما لم يصبح كل واحد منهم "محمدًا" صغيرا، وما لم يتبوء مكانة روحانية راقية بحيث إذا رآه أحد وجد فيه صورة مصغرة لمحمد ﷺ. واعلم أن الإنسان يعرف برؤية الصورة ما في صاحب الصورة من محاسن وعيوب، وما إذا كانت عيونه واسعة جميلة أم ضيقة، وهل هو جميل الطلعة أم دميمها، وهل أعضاؤه متناسقة أم لا، وهل هو كبير الرأس أم صغيره؟ وإذا نظر شخص إلى صورة إنسان صغير الرأس وقال إنه صغير الرأس فلا يجوز لك أن تقول له: إنك مخطئ لأنها صورة وليست أصلا. ولو قلتَ له هذا الكلام فسيعتبرك الجميع مجنونًا؛ ذلك لأن الصورة إنما هي انعكاس للإنسان

الحقيقي. لذا فكأن الله تعالى يقول للمسلمين: إذا لم تصبحوا صورة صحيحة للرسول ﷺ ستتيحون للدنيا فرصة الاعتراض عليه ﷺ، أما إذا صغتم حياتكم على منوال حياة الرسول ﷺ صار كل واحد منكم للعالمين نذيرًا، وعندها لن يفكر الناس فيما إذا كنتم مثقفين أم أميين، وهل كنتم أهل كفاءة وجدارة أم لا، بل سيرون في شخصكم أسوة المصطفى ﷺ، فتصبحون غالبين على الدنيا حتمًا.

مجمل القول إن الله تعالى قد بين في قوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ثلاثة أمور لا يمكن أن ننجح بدونها أبدًا وهي:

أوّلها: يريد الله تعالى منا أن يكون إنذارنا موجَّهًا إلى كل قوم وشعب، فنخاطب المسيحيين واليهود والهندوس والسيخ والبوذيين والزرادشتيين كلهم، ونعود إلى الله بعباده الذين قد نسوا طريقه ثانية. ذلك لأن الأُمّ لو فقدتْ ثلاثة من أولادها، فذهبتَ وأتيتَها باثنين منهم، فلن تفرح فرحة كاملة، بل ستقول لك: إني أحبّ ولدي الثالث أيضًا مثلهما، فأرجوك أن تذهب وتحاول البحث عنه أيضًا. كذلك لو كان عدد سكان العالم مليارين وأتيت بجميعهم إلى طريق الهدى إلا واحدا منهم، فيقول الله لك: إنه أيضًا عبدي ولِم لا تحاول أن تأتي به إليّ؟

وثانيها: يجب أن يكون القرآن الكريم مسيطرًا على قلوبكم ومستوليًا على عقولكم، لأن الفتح مقدر للقرآن الكريم، ولو ربطتم أنفسكم بالقرآن الكريم لكان الفتح حليفكم حتمًا.

وثالثها: إنكم لن تنجحوا في العالم ما لم تسعوا للتأسي بأسوة محمد رسول الله ﷺ واتّباع خطواته، وما لم يحاول كل واحد منكم أن يكون محمدًا صغيرًا بقدر كفاءاته ومواهبه.

ثم يقول الله تعالى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.. أي أن الذي أنـــزل هذا الكتاب العظيم لنجاة الناس وفلاحهم في الآخرة هو ذلك الإله العظيم الذي في يده مُلك السماوات والأرض، والذي لم يتخذ له ولدًا، وليس له شريك في ملكوته.

هو الذي خلق كل شيء، وجعل له قدرًا معينًا ينكشف به دومًا أن الله تعالى ذو بركات كثيرة ومنـــزه عن كل نقص وعيب.

وبما أن الإسلام دين كان عليه أن يخاطب أهل كل ديانة وكل شعب طبقًا لقوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، فقد نبه الله تعالى بقوله ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أن على علماء المسلمين أن يتعلموا كل لغات العالم. ولكن المؤسف أن المسلمين لا يهتمون بتعلّم اللغات عدا ما يتعلمه الطلاب في الكليات، وهؤلاء الطلاب أيضًا لا يتعلمون إلا الإنجليزية وهي ليست لغة كل العالم. كان ينبغي على علماء الإسلام أن يتقنوا الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والبرتغالية والأسبانية واللاتينية والهولندية والفيتنامية واليابانية والفيليبينية وغيرها من لغات العالم، لكي يتمكنوا من نشر رسالة القرآن في الدنيا كلها. فعلى دُعاتنا أن يولوا هذا الأمر اهتمامًا خاصًا. إن بعض دعاتنا يعملون في أفريقيا الغربية طيلة عشرة أعوام ومع ذلك لا يتقنون لغة تلك البلاد كما ينبغي؛ مع أن إتقان اللغات ضروري جدًّا لنشر رسالة القرآن الكريم. إن الداعية الذي لا يهتم بهذا الأمر لا يستحق أن يسمى داعية، بل إنه جندي غدار بين صفوف جنود الإسلام. كان العرب يتقنون لغات العالم كلها في عصر رقي الإسلام.

ثم لما كان من المحتم أن تشتدّ المعارضة نتيجة قيام الإسلام بجهاد التبليغ ضد الأديان الأخرى، فأعلنَ الله تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ليحذر معارضي الإسلام بأن لا يتباهوا بقوتهم. لا شك أن عندهم جموعًا كبيرة، وأن وراءهم دولاً قوية وحكومات كبيرة، ولكن عليهم أن يعلموا أن مُلك السماوات والأرض هو في قبضة الله في الحقيقة؛ وليس حكمهم إلا أمانة مودعة في أيديهم من قبل هذا المالك؛ فإذا خانوا هذه الأمانة ورفضوا رسالته تعالى، فليعلموا أن مالك السماوات والأرض لن يسكت على رفضهم، بل ستثور غيرته وسيعاقبهم لا محالة.

كما أن قوله الله تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بشارة ربانية للذين يؤمنون بمحمد ﷺ والقرآن الكريم بأن لا يتضايقوا من اضطهاد الكافرين. إنهم يُخرجونهم من أوطانهم، ويسلبونهم أموالهم، ويستولون على عقاراتهم، ولكن على

المؤمنين أن يدركوا أن تضحياتهم لن تذهب سدى، بل إن رب السماوات والأرض سيجعلهم وارثين للحُكم والمُلك، ليبرهن للعالم على أنه هو صاحب مُلك السماوات والأرض في الواقع، حيث جعل الذين خافوا من إنذاره العالمي ملوكًا على العالم، وجعل الملوكَ الذين رفضوا إنذاره شحّاذين يتسولون الناس.

ثم إن الله تعالى قد أشار بقوله ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أمر آخر، وذلك أن مُلك الله ورحمته ليست مختصة بشعب دون شعب أو قطر دون قطر، بل إنه تعالى يحكم كل ذرة من الكون، فكان لزامًا عليه أن يهيئ الأسباب لجمع كل الشعوب وكل الأفراد على مركز واحد؛ لكي تجتمع الدنيا كلها على مركز روحاني واحد كما أن هناك ربًّا واحدًا للسماوات والأرض. فلو لم ينـــزل القرآن الكريم و لم يخاطب الإنسانية جمعاء، لما قام ملكوت روحاني عالمي أبدًا. لا شك أن العصور القديمة التي كانت فيها وسائل الاتصال والمواصلات محدودة، وكان وصول الدعوة من بلد إلى آخر متعذرًا جدًّا، كان من الضروري في تلك العصور أن يُبعث هداة لشعوب معينة وأقطار محدودة، لكي لا يبقى أي قطر من أقطار العالم محرومًا من الهدى. ولكن لما عمرت البلدان، وقلّت المسافات بين سكان مختلف الأقطار والبقاع نتيجة كثرة العمران، وارتقى الجنس البشري عقلاً وذكاء، وكثرت وسائل الاتصال والمواصلات، وأخذت السيارات والقطارات مكان الثيران والحمير، ثم أخذت الطائرات مكان السيارات والقطارات، ثم تطورت الطائرات أكثر حتى استطاع الإنسان أن يدور حول الأرض في الطائرة في اثنتي عشرة ساعة، بل تؤكد المعلومات الحديثة أنه قد تمّ الآن اختراع طائرة سرعتها خمسة عشرة ميلا في الثانية.. أي تسعمئة ميل في الدقيقة، و٥٤ ألف ميل في الساعة، وستمئة ألف وثمانية وأربعين ألف ميل في اثنتي عشرة ساعة؛ وهذا يعني أن تلك الطائرة يمكن أن تدور حول الأرض مرارًا في ساعة واحدة. وفي هذه الظروف التي قد انكمشت فيها رقعة الأرض وتقلصت، هيأ الله الأسباب لقيام دولة روحانية عالمية بواسطة محمد رسول الله ﷺ. ولولا نـــزول القرآن لم ينكشف على العالم ملكوت الله مع كل عظمته وجلاله. واعلم أن عظمة النهر إنما تنكشف حين تنصب فيه القنوات

والجداول فيصبح كالبحر الزاخر. لقد كان موسى وعيسى وزرادشت وكرشنا وغيرهم من أنبياء الله تعالى – عليهم السلام – كالقنوات والجدوال الصغيرة، فكانت بعض هذه القنوات تروي بني إسرائيل، وبعضها تشفي غليل الفرس، وبعضها تزيل ظمأ أهل الهند، وبضعها تسقي أهل الصين؛ ولكن كان لزامًا أن تنصب كل هذه القنوات والجدوال الصغيرة في نهر عظيم، ليرى الناس مملكة روحانية عالمية موحدة، ويؤتى بهم إلى عتبة رب العالمين كما أن مُلك السماوات والأرض أيضًا بيد الله رب العالمين.

فالواقع أن قوله تعالى ﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ جاء دليلا على قوله تعالى ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، حيث بين الله تعالى أنه لم ينـــزل القرآن الكريم بدون سبب، بل كان نـــزوله جزءا هامًا من الخطة الإلهية لا يمكن إغفاله أبدًا. كان الله تعالى يريد أن ينسخ الشرائع السابقة كلها لينـــزل مكانها شريعة قادرة على جمع الإنسانية كلها على مركز واحد؛ وكان هذا يستلزم أن يتم اختراع وسائل الاتصال والمواصلات التي تجعل الدنيا تنكمش وتتقلص. ولأجل ذلك تجد أن القرآن الكريم بعد أن ذكر الخيل والبغال والحمير قال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٩).. أي أنه تعالى سيخلق في المستقبل مطايا ومراكب تفوق تصوراتكم أيضًا، وبالتالي سيجمع الإنسانية كلها على مركز واحد.

وكانت فكرة الدين العالمي وعقيدة إقامة ملكوت الإله الواحد على كل ذرة من السماوات والأرض لتدقّ ناقوس الخطر في الديانات التي تقول بوجود ابن لله تعالى أو تقول بكون الأنبياء شركاء معه تعالى، لذا فقد قام الله تعالى بتفنيد أفكار الأديان الباطلة فقال بعد ذلك ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.. أي لا ريب أن مُلك السماوات والأرض هو بيد الله وحده، ولكن ليس صحيحًا أنه قد اتخذ ولدًا يساعده في إدارة هذا المُلك، بل الحق إنه تعالى لا يعطي أحدًا مقام الابن دَعْك أن يتخذ ابنًا بالفعل.. أي أنه تعالى لا يرضى أن يجعل بينه وبين غيره من المشابهة حتى بقدر ما يكون بين الوالد وولده.

لا جرم أن المسيحيين يقدمون المسيح عليه السلام للعالم على أنه ابن لله تعالى، ولكن تاريخ حياة المسيح يكتنفه من الغموض والإبهام ما يصبح به معرفة صدق تعليم المسيحية من المستحيل عقلاً، اللهم إلا أن يوجد بين المسيحيين من عملوا بتعليمها حقًّا حتى يتمكن المرء برؤية هذه النماذج العَملية من معرفة صدق هذا التعليم. ولكن هذه النماذج لا توجد للأسف في العالم المسيحي، ولن توجد في المستقبل أبدًا. فعلى سبيل المثال يقول المسيح عليه السلام:

"فالحقَّ أقول لكم: لو كان لكم إيمانٌ مثلُ حبّةِ خردلٍ لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقِلْ من هنا إلى هناك، فينتقل، ولا يكون شيءٌ غير ممكنٍ لديكم." (متى ١٧: ٢٠)

فإذا كان المسيح عليه السلام يحيي الموتى حقًا كما يزعم المسيحيون (يوحنا ١١: ٤٣-٤٤).. وإذا كان في قلوبهم إيمان بالمسيح مثل حبة خردل، فمن واجبهم أن يحيوا الموتى لإثبات بُنوّة المسيح. وإذا كان المسيح يمشي على الماء بدون قارب أو سفينة (متى ١٤: ٢٥)، فعلى المسيحيين أن يمشوا على البحار بدون سفن. ولكنهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا، ما يدل دلالة واضحة على أن قلوبهم خالية من الإيمان بالمسيح. كما أنهم لا يستطيعون تقديم أي نموذج حيٍّ على صدق التعليم الإنجيلي. فثبت أن قولهم إن المسيح ابن الله ليس إلا ادعاءً فارغًا لا حقيقة له.

غير أن هذا الاعتقاد مناف لعظمة الله وجلاله تعالى أيضًا، إذ لا يمكن التسليم بضرورة ابن لله تعالى ما لم نسلّم بإمكانية تعرُّض الله تعالى للفناء، وحيث إن الله تعالى أسمى من الفناء فكيف تصحّ عقيدة بُنوّة المسيح لله تعالى؟ إنك ترى في العالم المادي أنه ليس هناك أيُّ أبناء للشمس والقمر والجبال والأنهار وما شابه ذلك، لأن هذه الأشياء باقية بقاء حاجة الإنسان إليها، ولكن الإنسان فان، فكان بحاجة إلى زوجة. ثم إن الإنسان يتمنى أن يكون له أولاد، فتجد الناسَ يهنّئونه إذا رُزق مولودًا لإدراكهم أن الله تعالى قد كتب لاسمه الخلود من خلال ابنه. ولكن لا يمكن التسليم بهذا الأمر في الله تعالى، لأنه حيّ قيّوم، فنسبة الابن إليه جهالةٌ بل إساءةٌ بالغة إليه تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.. أي أن من مزايا ملكوت الله تعالى أنه لا شريكَ له في مُلكه، ولكن المُلك المادي ليس كذلك، حيث تجد الملوك الماديين عرضة لشتى المؤامرت، فزوجاتهم يتآمرن عليهم، وأبناؤهم يحاولون قتلهم ليجلسوا مكانهم على العرش، ويتواطأ وزراؤهم وأمراؤهم للإطاحة بعروشهم كلما سنحت لهم الفرصة. ولكن الله تعالى الذي أنـــزل الفرقان على محمد ﷺ قد بشّر الناس بأن ربهم يملك كل ذرة في السماوات والأرض، وليس له ولد ولا شريك له في المُلك، كي لا يضطر الناس للتملق لابن أو زوجة أو وزير أو أمير له. بل إن إلههم أحدٌ لا شريك له، وحبّهم له ليس مقسومًا بينه وبين غيره. كما ليس هناك أحد شريك مع الله تعالى في مُلك حتى يفكروا في إرضائه، بل إن الناس مأمورون بعبادة رب واحد أحد فقط. فيجب أن يظل جبين الإنسان ساجدًا على عتبة باب ربه وحده، وأن يلبي نداءه دومًا.

ثم يقدّم الله تعالى قانونه الجاري في الكون كله كدليل على وحدانيته فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.. أي أنه تعالى جعل لكل شيء قدرًا يتطور بحسبه. والحق أن الله تعالى لو لم يجعل لكل شيء قدرًا معينًا لم يحقّق الإنسان رقيًا في أمور دنياه و لم يجد راحةً في أمور دينه. ذلك أن الفلاح الذي يأخذ الحبّات من بيته ويبذرها في الأرض، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى قد جعل قانونًا بأن الحبة إذا أُلقيت في الأرض أنبتت حبات كثيرة. ولكن لولا هذا القانون المحدد، بل إذا زرع الفلاح القمحَ، نبت القمح مرةً، والعنب مرة أخرى، والحسك مرة ثالثة، فلا بد أن يترك الفلاح زرع أي شيء بعد مدة من الزمن معتبرًا فعله هذا عبثًا ومضيعة لجهوده. كذلك فإن الصائغ يعرف أنه إذا وضع الذهب في النار فإنه سيذوب فيصوغ منه الحلي كيفما يشاء. ولكن لولا هذا القانون المعين والقاعدة المحددة، بل تحوَّلَ الذهب فضةً كلما وُضع في النار، أو تحولت الفضة نحاسًا إذا وضعت في النار، لامتنع الصائغ عن هذا العمل حتمًا. كذلك لو أن الحداد إذا سخن الحديد ليصنع منه مِغْفَرًا، فلما ضربه بالمطرقة أخذ شكل سندان مرة وشكل معول مرة أخرى، أو أَراد أن يصنع معولاً فتحول سيفًا، لعانى الحداد معاناة كبيرة. ولو أن

الطبيب أعطى المريض دواء للحمى فسبّب له السعال، فمن ذا الذي كان سيذهب إلى الأطباء. فبسبب القانون المحدد والخبرة الطويلة يعرف الفلاح البسيط أيضًا أن شراب البنفسجة يفيد في السعال، ولكن لولا هذه القاعدة، ولو شرب الإنسان شراب البنفسجة فسبّب له السعال حينًا، والحمى حينًا، والإمساك حينًا، والإسهال حينًا، وفقدان شهية الطعام حينًا، والجوع الشديد حينًا، فمنذا الذي كان سيسقي المريض هذا المشروب بعد ذلك؟ إن الناس إنما يسقون المريض مشروب البنفسجة لأن الله تعالى قد جعل قاعدة محددة بأن هذا المشروب يفيد في نوعٍ معين من السعال. وإن الفلاح إنما يحمل الغلال من بيته ويبذرها في الأرض لأنه موقن بأنه سيخرج من هذا القمح المزيد من القمح، ولو شك في هذا الأمر لقال: لماذا أضيع هذه الغلال؟ ولكنك تراه يلقي في الأرض أطنانًا من القمح لعِلمه أن الله تعالى قد جعل قدرًا ثابتًا بأن القمح ينبت من القمح، وأن حبة واحدة تتحول إلى مئة حبة، بل أكثر. كذلك إن المرء إذا أكل الطعام شبع، ولكنه لو شبع بلقمة حينًا، ولم يشبع بألف لقمة حينًا آخر، فلماذا يأكل؟ ولماذا يضيع المال على الطعام؟ وبالمثل إن النار تنضج الطعام، ولكن لو أن الرغيف بقي في التنور طوال النهار ولم ينضج، أو احترق بمجرد أن وُضع في التنور، لما خبز أحد شيئًا. أو لو نضج الطبيخ بالنار مرة، ولم ينضج مرة أخرى، لما صنع أحد أي طبيخ. وكل إنسان يعرف أن السكر يحلي المشروب والطعام، ولكنه لو جعل الطعام حلوا مرة، ومُرًّا مرة أخرى، ومالحًا مرة ثالثة، وحامضًا رديء الطعم مرة رابعة، لما استعمل أحد السكر.

باختصار، إن كل الكون جارٍ بسبب واحد وهو قاعدة التقدير، فإن الله تعالى قد قدر قانونًا محددًا بأن الحلو سيعطي طعم الحلاوة، وأن الحامض سيعطي طعم الحموضة، وأن النار ستحرق وستنضج، وأن الطعام سيُشبع، وقد جرّب الناس هذه الأمور فوجدوها صحيحة، ولذلك ينفقون أموالهم وجهودهم لاقتناء هذه الأشياء. ولو لم يكن الإنسان موقنًا بخواص الأشياء لامتنع عن بذل المجهود في أي شيء، ولبطل الكون كله.

ثم إن قضية التقدير هذه برهان عظيم على وجود البارئ تعالى أيضًا. ذلك أن أي صنعة لا يمكن وجودها بغير صانع. فإنك إذا رأيت صورة جميلة تعرف أن رسامًا مبدعًا قد قام برسمها. أو إذا قرأت عبارة رائعة أدركت أن كاتبًا شهيرًا قد كتبها. وكلما اطلع المرء على محاسن شيء اطلع على عظمة مخترعه. فكيف يصح الظن، والحال هذه، أن هذا الكون ذا النظام المعقد المدهش قد وُجد من تلقائه وبدون أي غاية؟ خذوا مثلاً الإنسان فإنه إذا كان مزوَّدًا بطاقات للتقدم والرقي، فإنه مزود أيضًا بعقل يصوغ أفكاره إلى العمل، كما أُعطي جسمًا مناسبًا لذلك. وبما أن عليه أن يكتسب رزقه بالكد والجهد فقد أُعطي أرجلاً تساعده على المشي هنا وهناك طلبًا للرزق. أما الشجرة التي رزقها في الأرض فقد زُوّدتْ بجذور تتغذى من خلالها. أما الأسد الذي يعيش على اللحم، فأعطاه البراثن للصيد. وأما الفرس أو الثور طعامه الكلأ فخُلق له عنق تمكّنه من رعي الكلأ على الأرض. أما الجمل الذي طعامه أوراق الشجر وأشواكها، فقد أعطي عنقًا طويلة تساعده على أكلها. فهل كل هذا قد حدث صدفة؟ وهل الصدفة هي التي أدركتْ أن عليها أن تعطي الجمل عنقًا طويلة والأسدَ براثن والشجرَ جذورًا والإنسان أرجلاً؟ هل من المعقول أن يوجد هذا النظام الهائل في الأشياء التي قد خُلقتْ من تلقائها صدفةً.

ثم إنك ترى أن الله تعالى إذ خلق في الإنسان الرئة خلق لها الهواء أيضًا. وإذ جعل حياة الإنسان متوقفة على الماء مَدَّه بالماء أيضًا من خلال الشمس والسحاب. وإذ وهب له العيون خلق لها ضوء الشمس ليرى بمساعدته. وإذ وهب له الآذان خلق إزاءها أصواتًا جميلة مطربة. وإذ وهب له لسانًا خلق له طعامًا لذيذًا. كان من الممكن أن تخلق الصدفة الرئةَ في الإنسان، ولكن كيف خُلق لرئته الهواء؟ وكان من الممكن أن تخلق الصدفة العيون في الإنسان، ولكن أليس غريبًا أن تُخلق الشمس على بعد ملايين الأميال لتساعد بضوئها العيون على الرؤية؟ وإذا كانت الصدفة قد خلقت للإنسان آذانًا، فمن ذا الذي خلق الأصوات إزاءها؟ وإذا كانت الصدفة خلقت الكلاب والدبب، فمن ذا الذي خلق للكلاب والدبب التي تعيش في المناطق الثلجية شعرًا طويلا يقيها من البرد؟ هل الصدفة هي التي خلقت الأمراض وخلقت

إزاءها شفاءها؟ وهل الصدفة هي التي أنبتت العشبة القارصة التي يصيب الإنسانَ لمسُها بحكة شديدة، ثم أنبتت إزاءها نبات السبانخ الذي فيه شفاء ذلك؟ إن أمر هذه الصدفة – التي يحتج بها الدهريون دائمًا – لغريب حقًّا، حيث زودت الأشياء التي مآلها الفناء بظاهرة التوالد والتناسل، بينما لم تجعل للأشياء التي لا تفنى أي توالد ولا تناسل؟ فمثلاً إن الإنسان فانٍ، فجعلت لها الصدفة توالدًا وتناسلا، وأما الشمس والقمر والأرض فهي باقية لا تفنى كالإنسان فلم تجعل الصدفة لها التوالد والتناسل! ثم أليس من المحير المذهل أن الأرض والشمس اللتين توجد فيهما قوة الجاذبية، قد جُعل بينهما بعدٌ شاسع حتى لا تصطدما؟ ألا تدل هذه الأمور كلها على أن هناك خالقًا لكل هذه الأشياء، وأنه ليس بعليم فحسب، بل عنده علم غير محدود، وأن قوانينه غاية في الإحكام، فلا ترى فيها فتورًا ولا خللا.

هناك آلاف من الرؤوس البشرية المفكرة التي تعمل ليل نهار على إدارة دولة من الدول، ومع ذلك تجد أن الحكومات ترتكب أخطاء فادحة تهدد بقاءها، بل إنها تقضي عليها في بعض الأحيان فعلاً. فإذا كان هذا الكون يدار بيد الصدفة فقط، أفليس غريبًا بالفعل أن آلاف العقول المدبرة في الحكومات ترتكب الأخطاء، بينما لا يصدر أي خطأ عن هذه "الصدفة" أبدًا؟

الواقع أن ما يقوله القرآن الكريم هو الحق، أي أن لهذا الكون خالقًا خلقه بهذا النظام المحكم المدهش. فحيثما أَجَلْتَ النظر وجدت كل شيء يؤدي واجبه على أحسن وجه؛ وهذا هو التقدير الذي يشكل برهانًا عظيمًا على وجود البارئ تعالى.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

نشورًا: نشَر اللهُ الموتى: أحياهم. (الأقرب)

التفسير: أي أن الكافرين قد فقدوا صوابهم لدرجة أنهم قد اتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئًا بل هم أنفسهم مخلوقون، وليست عندهم أية قدرة على أن يجلبوا نفعًا أو يتجنبوا ضررًا، وليس لهم أي خيار على الموت أو الحياة أو البعث بعد الموت.

لقد ذكر الله تعالى هنا المزيد من الأدلة على بطلان آلهتهم. فبيّن أن على الكفار أن يدركوا أنه لا بد للإله أن يكون متّصفًا بصفة الخلق، ولكن ليس بوسعهم أن يثبتوا لأي من آلهتهم أنه خالقٌ. لا شك أن المسيحيين قد نسبوا إلى المسيح عليه السلام معجزة إحياء الموتى، ومع ذلك لم يتجاسروا على أن يقولوا إنه كان خالقًا، ولكن بعض المسلمين الجهلة أخذوا يقولون أن المسيح كان يخلق الطيور (الطبري). ونحن نقول: إذا كان المسيح عليه السلام يخلق الطيور فعلاً فأين تلك الطيور؟ وهل استمر نسلها أم لا؟ وإذا كان لها نسل فكيف نعرف أن هذه الطيور من خلق المسيح وتلك من خلق الله تعالى؟ ومن أجل ذلك يؤكد الله تعالى هنا أن هذا الكلام مجرد هراء، إذ ليس في هذه الآلهة الباطلة مَن خلق شيئًا، فاتخاذها آلهة جهالة وحماقة.

والدليل الآخر الذي بينه الله تعالى هنا على بطلان آلهتهم هو أنها مخلوقة. وكيف يمارس الألوهية من كان محتاجًا لغيره لدرجة أنه لولاه لما كان له وجود في الدنيا؟ وهل يُخلَق الإله بيد غيره؟ فكيف جاز للإنسان أن يشرك بالله تعالى هؤلاء الآلهة مع أن كل واحد منها مخلوق، فكان المسيح مولودًا من بطن أمه، كما أن "بهاء الله" – الذي يرى أتباعه أنه ادعى الألوهية – أيضًا كان مولودًا من بطن أمه، وكذلك جميع أولياء الله والدراويش من أصحاب الزوايا الذين يسجد البعض على قبورهم.. كلٌّ أولئك كانوا مولودين من بطون أمهاتهم؟ فكيف يمكن أن يكونوا آلهة، وكيف جاز السجود لقبورهم؟

ثم يذكر الله تعالى دليلاً ثالثًا ضد آلهتهم، فيقول إن الذين تتخذونهم آلهة لم يكونوا قادرين على تجنب ضرر أو جلب نفع، وإنما تجنبوا الأضرار أو جلبوا المنافع بمساعدة الآخرين، فاتخاذهم الضعفاء آلهةً جهل وغباء. خذوا المسيح الناصري ﷺ

مثلاً، فلو كان قادرًا على النجاة من الصليب بقوته لما نجح العدو على تعليقه عليه، ولما اضطر لأن يصرخ وهو معلق على الصليب: "إيلي إيلي لما شبَقْتَني".. أي إلهي إلهي لماذا تركتَني؟" (متى ٢٧: ٤٦)

ولو كان المسيح عليه السلام قادرًا على جلب أي راحة ومنفعة لنفسه لماذا قال حين أخذه الشيطان إلى البرية يختبره: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى ٤: ٤)، ولماذا تحمَّلَ الجوع والفاقة طيلة أربعين يوما؟ والحق أن هذا الحادث كان كشفًا من الكشوف الروحانية حمله المسيحيون على الظاهر، إذ لو كان الشيطان قد أخذ المسيح عليه السلام إلى الجبل بالفعل لرآه الناس يصعد إلى الجبل بصحبة الشيطان، ولما تركه الحواريون وحده بل رافقوه. فثبت أنه كان كشفًا أو حُلمًا، ولكن المسيحيين حملوه على الظاهر، وجعلوا منه مهزلة.

كذلك قال المسيح عليه السلام في مناسبة أخرى: "للثعالب أَوجِرَةٌ ولطيور السماء أوكارٌ، وأما ابنُ الإنسانِ فليس له أَيْنَ يُسند رأسَه". (متى ٨: ٢٠)

وهنا أيضًا قد أقرَّ المسيح عليه السلام بعجزه وقلة حيلته، وأخبر أنه لا يجد مكانًا آمنًا يلجأ إليه. فمن كانت هذه حاله كيف يُتصور أنه متصف بصفات الإله؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾. واعلم أن للأشياء ثلاث درجات من حيث الموت والحياة: أولها العدم.. أي الموت، وثانيها الحياة بالقوة، وثالثها الحياة بالفعل أي النشور. ولما كان الموضوع هنا تفنيد الآلهة الباطلة فقد نبه الله تعالى بقوله ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً﴾ إلى أن هؤلاء الآلهة لو كانت تملك شيئًا من القدرة الإلهية لأنقذوا أنفسهم من الموت؛ ولكن الواقع يكشف أن كل من يُدعَى إلهًا من دون الله تعالى صار فريسة للموت. فالمسيحيون قد جعلوا من عقائدهم الحيوية أن المسيح عليه السلام مات وظلّ في جهنم ثلاثة أيام (غلاطية ٣: ١٣)، وتفسير الكتاب المقدس لميثيو بول مجلد ٣ ص ٩١١). وما دامت أرواح هؤلاء الآلهة ليست في مأمن من قبضة الموت القوية فكيف صاروا آلهة؟

ثم لو أنك رأيت إلى وقائع حياة هؤلاء الذين اتُّخذوا آلهة من دون الله تعالى لوجدت أنهم كانوا خاضعين لقانون أعلى عند كل خطوة من حياتهم. فكانوا

بحاجة إلى الطعام كسائر البشر، وكانوا يصابون بالأمراض ويقعون في المحن والمصائب. وما دامت حياتهم تشهد على أنهم قضوا حياتهم كلها في احتياج وعوز فكيف يصحّ اعتبارهم آلهة؟

ثم يقول الله تعالى أنهم لا يملكون ﴿نُشُورًا﴾.. أي أنهم لا يدرون متى يُبعثون ثانية.. بمعنى أنهم لا يعرفون الغيب. وها هو المسيح عليه السلام يقول: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكةُ الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآبُ". (مرقس ١٣: ٣٢)

وحيث إن المسيح عليه السلام لا توجد فيه حتى صفة واحدة من صفات الله تعالى، فكيف جاز اعتباره إلهًا خلافًا لوحدانية الله تعالى؟

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦

شرح الكلمات:

إفكٌ: الإفك: الكذب (الأقرب)

زورًا: الزور: الكذب؛ الباطل (الأقرب)

أساطير: جمعُ أُسطور، وهو: ما يُسطَر أي يُكتب؛ وتُستعمل في الحديث لا نظامَ له والحكايات (الأقرب)

اكتتبها: اكتتبَ الكتابَ: خطَّه؛ وقيل: استملاه؛ أَمَرَ أن يُكتَب له (الأقرب).

التفسير: أي يزعم الكافرون أن القرآن كتاب مزوَّر، وأن محمدًا قد ألفه مستعينًا ببعض البشر؛ والحقيقة أنهم قد ارتكبوا بذلك ظلمًا وزورًا. ولكي يدعموا اعتراضهم هذا يقولون: ليس هذا القرآن إلا سرقة لأقوال الأولين، حيث إن محمدًا (ﷺ) يسأل البعض أن يكتب له هذه الأقاويل، فتُقرَأ عليه في الصباح والمساء لكي يحفظه هو ومن معه جيدًا. فيرد الله تعالى على قولهم ويأمر نبيه: قل لهم، يا محمد، إن القرآن الكريم قد أنـــزله الذي يعلم أسرار السماوات والأرض، والذي هو كثير المغفرة والرحمة.

يتضح من كلمات هذه الآية أن صحابة الرسول ﷺ كانوا يجتمعون عنده صباحًا ومساء لأداء الصلوات وقراءة القرآن، فظن الكفار لغبائهم أن بعض العبيد المسيحيين يجتمعون مع المسلمين ويعلّمونهم ما ورد في كتبهم، أو يذهب الصحابة إلى هؤلاء العبيد ويكتبون ما يسمعونه منهم، ثم يجتمعون ليحفظوه صباحًا ومساء. وما كان بوسع هؤلاء الكافرين الجاهلين أن يخطر ببالهم أن الصحابة إنما يجتمعون لأداء الصلوات صباحًا ومساء، بل ظنوا أنهم يجتمعون بهدف نسج المؤامرات والمخططات.

ولقد مررت أنا أيضًا بتجربة مماثلة تبين مدى سوء ظن المعارضين. فقبل سنوات كثيرة ذهبتُ إلى مدينة لاهور، فجاء لزيارتي زعيم هندوسي يدعى "لاله بهجدت رام". وكانت في رفقته أناس آخرون منهم محرر جريدة السيخ الشهيرة "شير بنجاب". وتصادف أنه كانت لي محاضرة في مساء نفس اليوم، فمكث هؤلاء القوم للاستماع لمحاضرتي. ولم أتمكن من استخراج المراجع من قبيل آيات القرآن الكريم لكثرة مشاغلي طوال النهار. فأمرتُ الحافظ روشن علي ﷺ أن يجلس قريبًا مني على المنصة، لأني سأخبره خلال إلقائي المحاضرة مفهوم بعض الآيات القرآنية، فعليه أن يقرأ لي الآية كلها، لأقرأها مستعينًا بقراءته. فبدأتُ في إلقاء المحاضرة، وكلما احتجتُ إلى قراءة آية قرأتُ على "الحافظ روشن علي" كلمةً أو كلمتين من الآية

بصوت خفي، أو ذكرت له معناها، فكان يقرأ الآية كاملة، فأقرأها بقراءته، ثم أقوم بالاستدال الذي أريده من تلك الآية.

وفي اليوم التالي كتب محرر جريدة "شير بنجاب" مقالاً قال فيه: لقد استمعنا أمس إلى محاضرة إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية. لقد كانت محاضرة جيدة، ولكنا ذهبنا وراء المنصة لتحري الأمر، فوجدنا هناك عالمًا كبيرًا كان حضرة الإمام قد أخفاه هناك، فهو الذي كان يملي على الإمام كل الكلام، فكان الإمام يردده أمام الناس. فظل معارفي يضحكون على هذه الطريفة أيامًا. وذهب أحدهم إلى محرر الجريدة وأخبره الحقيقة. فخجل جدًا، وقال: لقد كنت أظن أن ذكائي قد أعثرَني على سر كبير.

ويبدو أن أهل مكة أيضًا أبدوا للناس مثل هذا الذكاء. لقد كان الصحابة يكدحون في أعمالهم طوال اليوم ولا يجدون وقت الفراغ إلا صباحًا ومساء، فكانوا يحضرون عند النبي ﷺ في دار الأرقم في هذه الأوقات لأداء صلاتي الفجر والمساء ولقراءة القرآن الكريم؛ فظن "الأذكياء" من الكفار أنهم قد اطلعوا على سر كبير، حيث قالوا إنهم يجتمعون هناك لتأليف القرآن.

والحق أن قولهم يشكّل آية عظيمة للإنسان العاقل، لأن قولهم هذا اعتراف منهم بأن تأليف هذا القرآن الكريم من قبل شخص واحد مستحيل، ومن أجل ذلك قالوا إن مجموعة من الناس تعين محمدًا ﷺ على تأليف القرآن، فبعضهم يجمع له المسائل المنطقية، وبعضهم يجمع تعاليم الصحف السابقة.

وأتناول الآن الرد الذي تضمنته هذه الآية على اعتراض الكافرين.

للرد على اعتراض الكافرين لا بد لنا من أخذ سؤالين هامين في الاعتبار: أوّلهما: هل هؤلاء العبيد الذين يقال أنهم أعانوا النبي ﷺ في تأليف القرآن الكريم كانوا قادرين على ذلك فعلاً؟ وثانيهما: هل البشر قادرون على الأمور التي قيل أنهم قد أمدّوا النبي ﷺ بها؟

وردًّا على السؤال الأول قال القرآن الكريم ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.. أي أن ادّعاء الكافرين بأن أُناسًا أعانوا محمدا (ﷺ) على تأليف القرآن الكريم يفنّد نفسه

بنفسه. ذلك أن القرآن الكريم يعلن بطلان كل ديانة يقول المعترضون أن بعض أتباعها أعانوا النبي (ﷺ) على تأليف القرآن. فمثلا يقال أن هؤلاء المساعدين كانوا مسيحيين. وليس خفيًا أن القرآن الكريم قد أبطل العقائد المسيحية بكل شدة وقوة؛ فكيف يُصدَّق إذًا أن يعلّم المسيحيون النبي ﷺ ما يهدم ديانتهم؟ ولو قيل أن مجموعة من اليهود كانوا يعلمون النبي ﷺ، فإن القرآن الكريم يفند الديانة اليهودية أيضًا أيما تفنيد. فثبت أن هذا الادعاء يشكل بحد ذاته دليلاً بيّنًا على بطلانه بحيث أغنانا عن البحث عن أي دليل آخر لإبطاله. وقد احتج المسيح عليه السلام أيضًا بهذا الدليل ردًّا على اليهود الذين قالوا إنه يطرد الأرواح الشريرة بمساعدة رئيس الأرواح الشريرة الذي يدعى بعلزبول، فقال لهم: "فإن كان الشيطان يُخرج الشيطانَ فقد انقسم على ذاته، فكيف تثبُت مملكتُه" (متى ١٢: ٢٦).. أي إن كنتم تظنون أني أستعين بالشيطان فكيف يمكن أن يعينني الشيطان ضده هو؟ فلو كان الشيطان يعلّمني فيجب أن لا يعلّمني ما يضره. ولكنكم تزعمون أن الشيطان يعلّمني ما فيه هلاكه، وهذا يعني أنه قد أصبح عدوًا لنفسه! وبالمثل نقول: إذا كان العبيد المسيحيون يؤلفون القرآن الكريم للنبي ﷺ فكان من المفروض أن لا يعلّموه ما يبطل ديانتهم. فثبت أن في هذا الاعتراض ما يؤكد بطلانه، وليس أساسه إلا الكذب والافتراء.

ثم إن قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ يعني أيضًا أنهم يزعمون أن جماعة قامت بتأليف هذا الكتاب لمحمد (ﷺ)، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: لِمَ لم يؤلّفوا هذا الكتاب القيم لأنفسهم؟ فثبت أن هذا الاعتراض ظلم وزور بحق هؤلاء الذين يعزى إليهم تأليف القرآن، إذ كيف يمكن أن يهَبوا إبداعهم لشخص بسيط؟

كما أن قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ إشارة إلى أن أولئك العبيد الذين يعزى إليهم تأليف القرآن الكريم للرسول ﷺ، كانوا يتحملون اضطهاد الكافرين ليل نهار في سبيل الإسلام، حتى استُشهد بعضهم؛ فكيف يصحّ القول أنهم كانوا يؤلفون القرآن للنبي ﷺ، إذ كيف يمكن أن يلفّقوا القرآن للناس ثم يقدّموا في سبيل هذا الكلام المزور المزيف تضحيات عظيمة؟ فمن الظلم العظيم أن يتّهم الكافرون

هؤلاء الصحابةَ والصحابيات من العبيد الذين سقوا شجرة الإسلام بدمائهم الزكية بتأليف القرآن لمحمد ﷺ!

إن المرءَ ليبكي بمجرد تصوُّر ذلك الاضطهاد الذي تعرض له هؤلاء العبيد في سبيل الإسلام. لم يكن للعبيد أي احترام في المجتمع العربي، ولم يكن لهم أي حقوق اجتماعية. ولو قتَل السيد عبدَه لم يسأله أحد عن قتله، إذ كان يُعتبر ملكًا لسيده، ولم يكن هناك قانون يحميه. وعندما آمن بعض العبيد برسول الله ﷺ سامهم الكافرون أشد العذاب، فكانوا يلقونهم في الشمس على الرمال المحرقة، ويجرّونهم على أرض ذات أحجار، فكانت أبدانهم تجرح وتدمى. وكلما اندملت جروحهم جرّوهم على الأحجار ثانية، وظلوا يؤذونهم بهذه الوحشية طويلا.

ورد في التاريخ عن بلال رضي الله عنه أن سيده كان يلقيه على الأرض ثم يقفز بنعاله على صدره، ويلحّ عليه أن يقرّ بوجود آلهة أخرى مع الله تعالى. وكان بلال رضي الله عنه عبدًا حبشيًا لا يستطيع نطق العربية نطقًا سليمًا، فكلما شدد عليه سيده الكافر وأصر عليه أن يتفوه بكلام يتنافى مع التوحيد، كان بلال يقول في حماس شديد: أَحَد، أَحَد.. أي أن الله تعالى أحد لا شريك له. فكان الكافر يصبّ عليه المزيد من العذاب.

وكان خباب بن الأرت أيضًا عبدًا يعمل حدّادًا. وقد آمن بالنبي ﷺ في بداية الإسلام المبكّرة. كان الكافرون يؤذونه أذى كبيرًا فكانوا يخرجون الجمر من موقده، ويلقونه عليه، ثم يلقون على صدره حجرا كبيرًا حتى لا يستطيع الحراك. كما كانوا يرفضون أن يؤتوه أجرته. ورغم ذلك لم يتزعزع خباب عن إيمانه لحظة واحدة، بل ظل ثابتًا عليه بكل قوة وشجاعة. وظلت آثار الحرق على ظهره معه طول عمره، ففي خلافة عمر رضي الله عنه ذكر المصائب التي تحملها في سبيل الإسلام ذات مرة، فقال له عمر: أَرِنا ظهرك، فكشف ظهره فإذا به آثار بيضاء تشبه البرص.

وكانت سُميّة – رضي الله عنها – من الإماء المسلمات، وكان أبو جهل يؤذيها أذى شديدًا لترتد عن الإسلام، ولكنها ظلت متمسكة بإيمانها. فطعنها أبو جهل في فرجها وهو في ثورة الغضب، فاستُشهدت.

أما عمار، وكان ابنًا لسُميّة هذه – رضي الله عنهما – فكانوا يُلقونه في الرمال المحرقة ويعذبونه أشد التعذيب.

وكان من هؤلاء العبيد صهيب، وكان قد أُخذ من بلاد الروم، كان عبدًا لعبد الله بن جدعان الذي أعتقه فيما بعد. لقد تعرّض صهيب لبلاء شديد بسبب إيمانه بالرسول ﷺ.

ثم هناك عبد آخر يُدعى أبو فُكيهة، لقد آمن بالنبي ﷺ في أوائل الإسلام. فكان الكافرون يلقونه على الرمال المحرقة. وذات مرة كان سيده يجرّه على الرمال، فمر به بعض الحيوانات، فأشار إليه سيده وقال: هذا هو إلهك يمرّ. فأجابه: ربي وربك واحدٌ. فغضب وخنَقه خنقا شديدا، ثم ألقى على صدره حجرا كبيرا حتى خرج لسانه من فمه وأُغمي عليه. فظن الناس أنه قد مات فتركوه، ولكنه أفاق فيما بعد.

وكان عامر بن فُهيرة عبدا آخر أعتقه أبو بكر ﷺ وكان قد أوذي بسبب إسلامه إيذاء شديدا.

وكانت هناك أَمَة أخرى اسمها لُبينة – رضي الله عنها – وكانت من أوائل المسلمين. كان عمر ﷺ قبل إسلامه يسومها أشد العذاب، ولكنها تثبتت على الإيمان.

وكانت هناك أَمة أخرى اسمها زَنيرة، وقد آمنت في بداية الإسلام. فضربها أبو جهل ضربًا شديدًا حتى أفقأ عينيها، ومع ذلك لم تكفر برسول الله ﷺ. وكان أبو جهل كلما رآها قال لها في غضب: هل تَردَّينا لدرجة أن تكون زنيرة قد آمنت بالدين الحق ونحن لم نؤمن؟

وكان هناك أَمتان أُخريان إحداهما نهدية والأخرى أُم عبيس، وقد أسلمتا في الفترة المكية، وقد تحملتا بسبب إسلامهما مصائب كثيرة.

وكانت حمامة والدة بلال ﷺ أيضا من المسلمات اللاتي صرن عرضة للاضطهاد الشديد نتيجة إسلامهن.

لقد قتل المكيون بعض هؤلاء العبيد شرَّ قِتلة حيث ربطوا إحدى رجليه ببعير وأخرى ببعير آخر، ثم ساقوهما في اتجاهين متعاكسين، فانشقّ المسكين قطعتين.

(البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى أطّلع الغيب، وأسد الغابة المجلد الثاني، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، والسيرة الحلبية المجلد الأول ص ٣٣٤: باب استخفائه ﷺ أصحابه، والكامل في التاريخ: ذكر تعذيب المسلمين، والاستيعاب في معرفة الأصحاب: باب صهيب، وأبو فكيهة)

فلو كان الرسول ﷺ يفتري على الله الكذب، ولو كان هؤلاء العبيد يؤلّفون له القرآن، فكان من المفروض أن يكونوا أعداء له، لا أن يؤمنوا به ويضحّوا أرواحهم في سبيله ﷺ.

وكان السؤال الثاني ضد هذا الاعتراض هو: هل هناك أي إمكانية أن يكون القرآن مما علّمه هؤلاء العبيد للرسول ﷺ؟ فردّ الله على ذلك وقال إن ما يعدّونه أساطير ليس أساطير، بل هي أنباء قد أنبأ بها الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، والذي قد هيأ لهم علاجًا لمرضهم لأنه غفور رحيم. أي أن هذا الكتاب يبيّن أسرارًا سماوية أي روحانية وكذلك أسرارًا أرضية أي مادية. فإنه يبين بالتفصيل معاملة الله مع العباد، كما يلقي الضوء على ما يبديه العباد من أفكار ومشاعر في شتى الظروف والمناسبات. فالتعليم الذي يبيّن أسرار الفِطرة الإنسانية على تفاوت أنواعها ومراتبها، سواءً أكانوا من العرب أو الهنود أو الأمريكان أو الأوروبيين، ويسدّ كل ضرورة طبيعية للناس، ويبيّن معاملة الله مع العباد بكل أنواعها، كيف يمكن أن يُعتبر ذلك التعليم تقليدًا وسرقةً للتعاليم السابقة؟ فليدُلّونا على شرع يتّسم بكل هذه المزايا. إن الصحف السابقة كان نطاق هديها محدودًا جدًّا، إذ كان زمنها محدودًا وكانت ذات طابع محليّ غير عالمي؛ لذلك لم تُراعِ تلك الكتب حاجات الفطرة الإنسانية بكل أنواعها. وعلى سبيل المثال، كانت التوراة تهدف إلى إصلاح اليهود فقط دون الأمم الأخرى، كما أنها لم تنـــزل لكل العصور. ولكن القرآن كتاب لكل الشعوب ولكل العصور. إنه لليهود وللنصارى وللمسلمين وللهندوس وللأوروبيين وللصينيين ولليابانيين وللشعوب المتخلفة وغير المتخلفة. ليس هناك شعب لا يخاطبه هديُ القرآن، وليس ثمة عصر لا يحتاج أهله إلى القرآن. وما دام القرآن الكريم يتبوء هذه الدرجة الرفيعة السامية، فكيف يمكن

أن يسمى تقليدا ونسخًا لكتب الأمم السابقة. إن أحوال الأمم السابقة يمكن أن يعرفها كل واحد من كتب التاريخ، ولكن القرآن الكريم مليء بأسرار وأنباء يستحيل أن يعلمها أحد من البشر؛ فكيف يصحّ تسمية ما فيه من علوم الغيب أساطير الأولين؟ ففي الفترة التي كان الإسلام فيها لا يزال محدودا داخل مكة، وكان المسلمون يُعذَّبون بسبب إسلامهم، فيتعرضون للضرب والقتل والمقاطعة والنفي من أموالهم وديارهم، وكان من المستحيل أن يتصوّر أهل مكة أنهم سيُدمَّرون في يوم من الأيام وأن زمام الحُكم سيوضع في أيدي المسلمين، أقول في تلك الفترة أخبر الله تعالى وقال ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ۞ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾(القمر:٤٢-٤٧).. أي أن فرعون مَلِكَ مصر الذي كان يضطهد بني إسرائيل أنذرناه على لسان موسى بأن لا يحارب عبدنا وإلا فسيلقى الخسران. ولكنه لم يحفل بإنذارنا، فأخذناه بسبب تكذيبه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

وقد قال الله تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ لأن بعض الناس يأخذون عدوهم، ولكنه يفلت من أيديهم، ولكن الله تعالى يعلن أننا بطشنا بفرعونَ بطشًا لا يمكن أن ينفلت منه أحد، وعاقبناه عقابًا لا ينجو منه أحد. كما أن هذا التعبير الرباني إشارة إلى رحمته أيضا، ذلك لأن الإنسان المقتدر لا يشدد في العقاب بما يكون فوق الاحتمال لعلمه أنه قادر على إنـــزال العقاب فيما بعد أيضا. بينما نرى أن الحكومات الدنيوية حين تحكم بعقاب الناس فبعضهم ينجو من عقابها. فمثلا هناك شخص تحكم الحكومة بإعدامه، ولكنه يتواطأ مع رجال السجن، فيحضرون له السمّ بأنفسهم أو من قبل أقاربه، فيشرب السمّ وينتحر قبل أن ينفذ فيه الإعدام. فعندما هزم الحلفاءُ ألمانيا في الحرب العالمية ألقوا القبض على "غورينغ" (GORING) وأعلنوا بكل زهوٍ عن اليوم الذي يقتلونه فيه شنقًا، ظانين أن تصرفهم هذا سيهين الألمان في أعين العالم إهانة شديدة. ولكنهم لما دخلوا غرفته قبل موعد

الإعدام وجدوه ميتًا، وعلموا فيما بعد أن الألمان أوصلوا إليه السمّ سرًّا، فتناوله ومات. (Encyclopedia Of The Second World War, P.172:"Goring")

فترى أن الحلفاء قد أخذوه فعلاً، ولكنهم لم ينجحوا فيما خططوا له من عقاب، فكان أَخْذَهم أَخذَ عزيزٍ، ولكنه لم يكن أَخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

ثم إن بعض المجرمين يهرب من السجن قبل تنفيذ العقوبة حينًا، أو حتى قبل أن تُكبَّل يداه. وفي بعض الأحيان لا تتمكن الحكومة من إلقاء القبض عليه طول حياته. ولذا يبين الله تعالى هنا أمرين: إذا كان بعض المجرمين يهرب من أيدي السلطات الحكومية، فإننا سنأخذ الكافرين أخذًا لن يستطيعوا الهروب بعده. وإذا كانت الحكومة الدنيوية لا تستطيع معاقبة المجرم رغم إلقاء القبض عليه، أو لا تنجح في تنفيذ الإعدام فيه بعد أن حكمت به عليه، إذ يموت قبل الإعدام بتناوله سمًّا أو بسكتة قلبية مثلا، فإننا نبطش بالمجرمين بحيث لا يفلتون من أيدينا، كما ننفذ فيهم العقوبة التي نريدها.

ثم يقول الله تعالى في هذه الآيات من سورة القمر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾.. أي يا أهل مكة، أأنتم أفضَلُ من الذين كفروا بموسى؟ فما دمنا قد عاقبنا الذين كفروا بموسى، فكيف ظننتم أنكم بمنجاة من عقابنا؟ أم أن هناك ضمانًا في الكتب السابقة بأن أهل مكة لن يتعرضوا للعقاب؟ لا شك أن الله تعالى قد وعد بحماية الكعبة المشرفة، ولكنه لم يقل أنه لن يعاقبكم أبدا.

ثم يقول الله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.. أي هل يظنون أنهم حزب كبير، وأنهم سيقضون على المسلمين؟ فليعلموا أنهم سيشنّون الغارات على المسلمين، ويضمون إليهم أحزابًا أخرى للهجوم على محمد ﷺ وأصحابه، ولكن جموعهم ستُهزم ويولّون الدبر.

ثم يقول الله تعالى ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾.. أي يا أهل مكة، إن ساعة الدمار التي ستأتي عليكم هي أشد دمارًا من ساعة فرعون. واعلم أن الساعة التي أتت على فرعون تبدو أول وهلة أشد دمارًا، إذ قد غرق مع جنوده، ولكن التدبر سيكشف لنا أن كفار مكة قد عوقبوا بأشد مما عوقب به

فرعون وقومه. ذلك لأن موسى عليه السلام لم يستطع أن يستولي على مصر، بل إن أتباعه رفضوا الهجوم على أرض كنعان أيضًا (الخروج ٣٣: ١-٤)، أما محمد رسول الله ﷺ فلم يهزم عدوه فحسب، بل قد فتح مكة. فثبت أن عقاب أهل مكة كان أشد من عقاب أعداء موسى عليه السلام، إذ اضطروا كقوم للانقياد لمحمد ﷺ.

فهل كان بوسع إنسان أن يختلق هذا الخبر ويدلي به من عنده في ذلك الوقت؟ أو هل كان قادرا على تحقيقه؟ لقد أُدلي بهذا النبأ حين كان المسلمون مستضعفين مضطهدين، ولم يكن لأحد أن يتصور عندها أن القبائل العربية كلها ستشن عليهم هجوما موحّدًا؛ ولكن الله تعالى قد أخبر عندئذ بأن المسلمين سينالون القوة حتى يتحد الكافرون كلهم ليقضوا عليهم، ولكن الله تعالى سيأتي لنصرة رسوله مسرعًا. وعندما يصل الأعداء إلى ساحة القتال سيجدون الله هناك، فيصابون بالذهول وينبهرون. وبالفعل اتحد الأعداء للهجوم على المدينة في غزوة الأحزاب حتى بلغ عددهم عشرين ألف مقاتل (التنبيه والإشراف: ذكر السنة الخامسة من الهجرة)، بينما كان عدد المسلمين ألفًا ومئتي شخص، وقد عُيّن خمسمئة منهم لحماية النساء، وبقي في الجيش المسلم سبعمئة جندي فقط. ولكن الله تعالى أيدهم بنصره، فاندحر العدو ذليلاً مهانًا أمام هؤلاء السبعمئة مسلم، وكتب الله الفتح لرسوله ﷺ.

فالله تعالى يعرض على الكافرين هذه الأسرار السماوية والأنباء الغيبية تفنيدًا لاعتراضهم بأن هذا القرآن قد اختلقه بعض الناس وهو ليس من عند الله تعالى، فيقول إن قولكم هذا كذبٌ وزورٌ، لأن هذا الكتاب يتضمن أنباءً يستحيل على عقل الإنسان أن يخترعها من عنده، مما يدل دلالة واضحة أنه من وحي الله تعالى.

والغريب أن أعداء الإسلام يعترضون على النبي ﷺ أنه قد استكتب من بعض العبيد المسيحيين حالات الأنبياء السابقين وأممهم، ثم كان يقرؤها أمام المسلمين صباحًا ومساءً لكي لا ينساها، ولكن ليس بوسعهم أبدا أن يُثبتوا وجود نسخة عربية للتوراة والإنجيل في ذلك الزمن ليستعين بها ويؤلف القرآن. والواقع أن أهل الكتاب في ذلك الزمن لم يهتموا بترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، حتى لم تكن عند اليهود القاطنين في المدينة وما حولها أي نسخة عربية لكتابهم، بل كلما احتاج

النبي ﷺ إلى معرفة شيء من كتابهم كان يسأل عنه عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان عالما بالعبرانية، فكان ينظر في النسخة العبرانية للتوراة ويخبره بما فيها. (البخاري: كتاب التفسير، سورة آل عمران، قوله تعالى: قل فأتوا بالتوراة فاتْلوها....)

وهذه الحقيقة واضحة وجلية بحيث إن الكتّاب المسيحيين أنفسهم يعترفون بها. فمثلا يقول الكاتب المسيحي الشهير الدكتور ألكسندر إن أقدم نسخة عربية للكتاب المقدس لا ترقى إلى ما بعد القرن الثامن الميلادي.

(The text & cannon of the New Testament P.74 & Encyclopedia of religion & Ethics, Vol.9 P.481)

علمًا أن الرسول ﷺ قد بُعث في القرن السادس الميلادي. وحيث إنه لم توجد أي ترجمة عربية للتوراة أو الإنجيل في ذلك الوقت، فكيف كان العبيد النصارى يقرأون على النبي ﷺ ما ورد في كتابهم من أحداث قديمة، حتى يحفظها ﷺ؟

هذا هو الجواب الذي ردّ به القرآن الكريم على اعتراضهم في هذه الآيات. ولكن هناك جوابًا آخر قد ذكره القرآن الكريم وهو أنه إذا كان صحيحا ما يزعمه الكافرون بأن مجموعة من الناس قد قاموا بتأليف هذا الكتاب، فلِم لا يتقدمون ليؤلّفوا كتابًا فيه ما في القرآن من مزايا ومحاسن، حتى تعلم الدنيا صحة ادعائهم؟ ذلك لأن العمل الذي يمكن أن يقوم به بضعة أشخاص سيقوم به حتمًا مئة وألف من الناس الآخرين أيضًا. ولكنهم إذا لم يؤلفوا كتابا مثل القرآن ثبت للناس بطلان ادعائهم.

وقد ذكر الله تعالى هذا الجواب في مكان آخر من القرآن الكريم أيضًا حيث قال ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء:٨٩).. أي قُل لهم، يا محمد، لئن اجتمع كبارهم وصغارهم، وعلماؤهم وجهلاؤهم، وأغنياؤهم وفقراؤهم جميعا، لتأليف كتاب مثيل للقرآن الكريم، فلن يستطيعوا تأليفه ولو ساعد بعضهم بعضًا. فترى أن الله تعالى قد تحداهم هنا أنهم إذا كانوا يزعمون أن القرآن الكريم من تأليف البشر، فلِم لا يؤلفون كتابا يماثله في مزاياه ومحاسنه؟ فكما أن القرآن قد سلط الضوء على كل قضية دينية ضرورية، عليهم أن يعدّوا كتابًا يقدّم للإنسانية تعليما جامعا

مكتملا فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات والأخلاق والاقتصاد والسياسة وغيرها، تعليمًا لا يفرّق بين شعب وآخر وبين طبقة وأخرى من الناس، بل يقدّم للنهوض بالإنسانية كلها في مجال الدين والدنيا قانونا مكتملا خاليًا من كل نقصٍ وعيبٍ يسدّ كل حاجاتهم ويضمن منافع لهم. فلو فعلوا ذلك ثبتت دعواهم بأن القرآن الكريم قد أُعِدَّ بمساعدة مجموعة من الناس. وإن لم يفعلوا ذلك ولن يفعلوه إلى يوم القيامة فثبت أنهم كاذبون فيما يقولون. وبالفعل ترى أنه قد انقضت على هذا التحدي القرآني أربعة عشر قرنًا، وبرغم أن الأعداء لم يستطيعوا حتى اليوم قبول هذا التحدي مع أنهم لم يدّخروا وسعًا في معارضة القرآن الكريم، فإن عجزهم وقلة حيلتهم أمام هذا التحدي يؤكد أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، بل إنه منـــزل من عند الله تعالى ولا يستطيع الإنسان أن يتحدّاه.